٣
سلسلة منشورات جامعة الدراسات الإسلامية
باكستان كراتشي

غرر التبيان في من لم يسم في القرآن

قاضي القضاة شيخ الإسلام العلامة
بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله
ابن جماعة الكناني الحموي الشافعي ـ المتوفى ٧٣٣ هـ

دراسة وتحقيق
الدكتور عبد الجواد خلف
مدير ومؤسس جامعة الدراسات الإسلامية

دار قتيبة

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع

● دمشق - ص.ب. ١٣٤١٤ ● بيروت - ص.ب. ١٤/٦٣٦٤

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على المبعوث رحمةً للعالمين سيِّدنا ومولانا محمَّد النَّبيِّ الأُميِّ الكريم، وعلى آله، وأصحابه الطَّيبين الطَّاهرين، ومَن تبعهم على الإيمان والهدى إلى يوم الدِّين.

وبعد: فهذه رسالةٌ علميةٌ موضوعُها:

«القاضي بدر الدين بن جماعة: حياته وآثاره العلمية، ومنهجه في التفسير مع تحقيق مخطوطه النَّادر في مبهمات القرآن».

وقد دعاني للكتابة حول شخصيّة هذا القاضي الجليل، وتوجيه الأَنظار إلى حياته، وآثاره العلمية وخاصة مخطوطه النَّادر في تفسير مبهمات القرآن عدَّة أسبابٍ، كان للمصادفة في بعضها دوراً هاماً:

ذلك أنِّي ما كنت أَسمع بعالمٍ من علماء الأُمَّة يحمل اسم «ابن جماعة» كما كنّا نسمع بالسبكي، وابن كثير، والذَّهبي، وابن تيميّة، وغيرهم من مشاهير العصر الوسيط للإسلام، أَو مشاهير غيره من الأَعصر. هؤلاء المشاهير الذين كنّا ونحن طلاب علمٍ نتسابق إلى ذكر أَسمائهم بمجرد ورود أَسماءِ مؤلّفاتهم في حلقاتنا الدراسية، أَو محافلنا العلمية أَو تدريباتنا الذهنية.

فما يكاد يذكر اسم «البخلاء» حتى نبادر بذكر «الجاحظ».

وما يكاد ينطق الناطق «بالبداية والنهاية» حتى نسارع بذكر «ابن كثير».

وما يكاد يلفظ «بصبح الأعشى» حتى نتسابق إلى ذكر «القلقشندي».

أمَّا «ابن جماعة» فلا أذكر يوماً أنَّه أطلَّ علينا من نافذة التاريخ بكتاب، أو بحث أو نادرة تفسح له من عقولنا مكاناً، أو من مجالسنا حديثاً. إلى أنْ هيَّأ الله لي أنْ أكون أحد أفراد بعثة الأزهر التعليمية إلى «دولة الباكستان الإسلامية الشقيقة».

وكان من حسن حظي أنْ أنتدب للعمل بمجمع البحوث الإسلامية بإسلام آباد، وأن يكون لي شرف العمل مع الأخوة الباحثين في هذا المجمع الموقر وعلى رأسهم الأستاذ الدكتور/ عبد الواحد هالي بوتا مدير المجمع. والأستاذ الدكتور/ محمد صغير حسن المعصومي نائب المدير آنذاك. وما لبث هذان الأستاذان الجليلان بعد فترةٍ وجيزة، أن دفعا إليَّ مخطوطاً صغيراً في تفسير مبهمات القرآن الكريم، بقصد تصفّحه كأحد المصوّرات التي تم نقلها عن دار الكتب المصرية بالقاهرة.

وما إن أخذْت في تقليب صفحات المخطوط، وقراءة بعض موادّه حتى وجدت نفسي بين يديْ عالمٍ غزير العلم، واسع المعرفة بآثار السَّلف، فسارعتُ أنشد مقدمة المخطوط، لتسعفني باسمِ مصنِّفه، وكلِّي ثقةٌ أنَّه أحد مشاهير الأعلام المفسّرين لكتاب الله عزَّ وجلَّ.

فإذا بعنوان المخطوط وفيه:

«كتاب غرر التِّبيان فيمن لم يُسمَّ في القرآن».

لشيخ الإسلام قاضي القضاة أبي عبد اللّه محمّدِ بنِ إبراهيم ابنِ سعد اللّه بنِ جماعة الكناني المتوفى سنة ٧٣٣ هـ.

فهالني أنْ يكون من بين علماء الأمَّة الأفذاذ من أجهل اسمَه، وأجهل له هذا الأثرَ الجليلَ في تفسير مبهمات القرآنِ العظيم.

فسارعتُ إلى كتب التواريخ، وتراجم الرِّجال، لأعرف عن حياته ما يُذهب عني عيب الجهل به، فأدهشني أنْ أجدَ في بطونها جماعةً من صفوة العلماء، ومشاهير عصر المماليك، كلٌّ واحد منهم يحمل اسم «ابن جماعة» وأنَّهم جميعاً ينتمون إلى أُسرة واحدة، سرَّني غاية السُّرور أن يكون عميدها هو:

«القاضي بدر الدين بن جماعة»، موضوع هذه الرسالة.

فعكفت على دراسة حياة الرَّجل، وآثاره، شهراً بعد شهرٍ، وعاماً بعد عامٍ، وفي كلِّ يومٍ تزداد منزلة الرَّجلِ عندي بمقدار ما أعرفه عنه في هذا اليوم من علمٍ جديدٍ، أو منصبٍ فريدٍ، أو بحثٍ نادرٍ، أو جهدٍ مثابرٍ. وإذا بالرَّجل وقد كان علاَّمة عصره، ومقصِدَ العلم في زمانه.

وإذا بمشاهيرِ العلماءِ الذين نحفظ أسماءَهم: كأبي حيَّان، والسُّبكي، والصَّفدي، وابن كثيرٍ، والمَقريزيّ، وابن حجر: ما هم إلاَّ تلاميذه، أو تلاميذُ أبنائِه. وإذا بالرَّجل وهو أحد أفراد أُسرة قدّمت للأُمَّة الإسلاميَّة ما يزيد على أربعين عالماً من بينهم خمسة عشر هم أولاده وأحفاده، كان منهم أربع نساءٍ عالماتٍ، فاضلاتٍ، سَبَقْنَ كثيراً من الرِّجال في علوم الحديث حتى قال العلاَّمة «السَّخاوي» عن إحداهنَّ:

«نزل أهل مِصْرَ بموتها في الرِّواية درجةً».

وإذا بالرَّجلِ وقد كان قطبَ الرَّحىٰ في زمانه بما تولاَّه من الوظائف الرَّسمية في دولةِ المماليك، فظلَّ أربعين سنةً في منصب قاضي القُضاة، وأكثر من ستين سنةً وهو على رأس أهمِّ المدارسِ الجامعة في عصْره في مصْر والشَّام، وقد بلغ عدد المدارس التي تولّى صدارتَها أو التَّدريس بها ثلاث عشرة مدرسة. كما كان خطيباً للمسجد الأقصى في القدس، وخطيباً للمسجدِ الأمويِّ في دمشق، وخطيباً للجامعِ الأزهرِ في مصر، وشيخاً للشيوخ.

وإذا بالرَّجلِ وكان صاحبَ علومٍ غزيرةٍ يَضرب في كلِّ علمٍ بسهمٍ

وافرٍ، وإذا بمؤلفاتِه يتردّد ذكرُها في كتب التّواريخ والتّراجم.

وإذا بالرّجل وقد كان شيخَ الحديث، وأحدَ رواته الثّقات في زمانه.

وإذا بالرّجل وقد كان أحد المدافعين للتّتار، ورئيس الوفد الذي ذهب لملاقاة «غازان» التتري وفيهم العلاّمة «ابن تيمية».

وإذا بالرّجلِ وقد كان من قلائلِ علماءِ الأُمّةِ الذين تخصّصوا في تصنيف نوادر العلوم، فهو ثالثُ خمسةٍ في كلِّ تاريخ الحركة الإسلامية ـ الذين ألّفوا في «علم مبهمات القرآن».

ويُعَدُّ مخطوطُه النّادر «غرر التّبيان فيمن لم يُسمَّ في القرآن» الذي نُعنىٰ بتحقيقه في هذا البحث، أوْفَى ما صنّف في هذا الفن، وأكملها منهجاً، وأغزرها جمعاً للمادة المبهمة، وألزمها سلوكاً للمنهج العلمي المتخصّص.

وإذا بالرّجلِ فوق كلِّ هذا محمود السّيرة والسّريرة، مرزوق القبول من الخاصّ والعام. لم يَشُذَّ مصدرٌ من المصادر التي كتبت عنه في وصفه بالورع، والتّقوى وكفّ الأذى، ولِين الجانب، ووجاهته عند السّلاطين، والعلماء، والعامّة.

فلم أتردد بعد كلِّ هذا الذي علمته، وجمعتُه عنه من أنْ أتوجّه متوكّلاً على الله تعالى ـ بتسجيل ما جمعت، لأتقدم به إلى جامعة البنجاب للحصول على الإجازة العلمية بدرجة «الدكتوراه»، لا لأحلّي بها جيدي بل لأُزيِّنَ بها جيدَ العلاّمة «بدر الدِّين بن جماعة»، وأقدّمه لأبناء أُمّته بعد أنْ أزلْتُ عن حياته غبار السنين، وعن آثاره غبارَ الخزائن.

يدفعني إلى تقديمه طائفة من الأسباب أهمها:

١ ـ أنّه من الخطأ البيِّن ـ ونحن أُمّة نهضت بالعلم وللعلم ـ أنْ يكونَ في تاريخِ هذه الأُمَّةِ علماءُ نجهل أسماءَهم مثلما نجهل مؤلّفاتِهم.

٢ ـ أنّه لا ينبغي لنا ونحن أُمّة لها هذه الصفة أنْ لا نسمح لأحدٍ من

علمائها ـ ممّن كانوا مشعل نورٍ في تاريخ حضارتها ـ أنْ يُطلَّ علينا من نافذة التّاريخ عبر العصور إلّا إذا كان مجدِّدَ مذهبٍ، أو صاحبَ رأيٍ يستلفت الأنظار. فإذا لم يكن كذلك أغلقْنا عليه نافذة التّاريخ، وحَكَمْنا على أبناء هذه الأُمّةِ بتجاهلِهِ، ثُمَّ بالجهلِ به، وهذا إسرافٌ في عدم تقدير العلماء الذين أفنَوْا من عمرهم سنين طوالاً، يحملون علمَ هذه الأُمَّة.

٣ ـ أنَّه من الجُرم في حقِّ العلم وتاريخه وأهلِه، ثُمَّ في حقِّ الأُمَّة الإسلامية كلِّها، أنْ يكونَ في ماضيها التّليدِ أُسرةٌ خالدةٌ تُنجب للحضارةِ الإسلاميَّة، والثّقافةِ البشريةِ أربعين عالماً ونيفاً، ثُمَّ تكون هذه الأُسرةُ الفريدة برجالِها الأفذاذِ مجهولي الأسماءِ، والآثارِ، ومنهم مَن قيل عنه:

«كان يفاخرُ به علماء العرب والعجم».

٤ ـ من العار على مثقّفي هذه الأُمَّة، بل على أكثرِ خواصّها أنْ تَظَلَّ جاهلة بهذه الأُسرةِ الكريمةِ، بينما آثارُ عشرات العلماءِ من أبنائها تملأ محابسَ العالمِ ومكتباتِه، ومتاحفَه، وأديرتَه، وكنائسَه في أقصى الشّرقِ والغربِ، بل وفي أعماقِ الرِّيفِ من شبه القارّة الهنديّةِ.

٥ ـ أنَّ عصور التّاريخ الإسلامي ـ وبالأخصِّ عصر المماليك ـ حافلةٌ بالعديدِ من العلماءِ ممّن لهم حقٌّ على أبناءِ هذه الأُمّة أنْ يُعرفوا النّاس بهم، من أمثال شيخ الإسلام العلاّمة «بدر الدِّين بن جماعة».

٦ ـ أنّنا ونحن في عصر التخصّص العلمي الآن في كافّة مجالات العلوم ينبغي على طلاّب العلمِ أن ينظروا في الفنونِ الكبرى ليُنشئوا منها علوماً جديدةً إذا ما توفّرت لديهم أصولُها والأسبابُ والدوافعُ لهذا الفصل.

وقد دفعني هذا إلى فصلِ علمِ تفسيرِ مبهماتِ القرآنِ عن علمِ التّفسيرِ العامِ عند البحثِ والنّظرِ والتّحقيقِ في مخطوط العلاّمةِ ابنِ جماعة، فوضعت له حَدّاً، وموضوعاً، وواضعاً، واسْتمداداً، واسْماً، وحُكماً، ومسائلَ، ونسبةً،

وفائدةً، وغايةً، وما ذلك إلا لأن تعهد تراث الأمة بالحفظِ، والنشرِ، والاستفادةِ منه مطلب ديني وقومي متجدّد يحفظُه الخلفُ عن السّلفِ كما أعلَمَنا رسولُ الله ﷺ بقوله:

«يحمل هذا العلمَ من كلِّ خلفٍ عدولُه، ينفون عنه تحريفَ الغالين، وانتحالَ المبطلين، وتأويلَ الجاهلين».

فلا مستقبلَ لأمّة لا تبني حاضرَها علىٰ أمجاد ماضيها، ولا تستضيء بماضيها على طريقِ مستقبلِها.

هذا وقد تقدّمت بهذه الاعتباراتِ والأسبابِ مع خطةٍ كاملةٍ لدراسةِ حياةِ العلاّمة بدر الدين بن جماعة وتوجيه العناية الكبرى إلى تحقيقِ أثره النّادر في تفسيرِ مبهماتِ القرآنِ إلى أساتذةِ قسمِ الدّراسات الإسلامية بجامعة البُنجاب:

الأستاذ الدّكتور: أمان اللّٰه خان رئيس القسم.

الأستاذ الدّكتور: حافظ أحمد يار الأستاذ المساعد.

الأستاذ الدّكتور: بشير أحمد صديقي الأستاذ المساعد.

حيث أبدى هؤلاءِ الأساتذةُ الكِرامُ من الاهتمام بموضوعِ الرسالةِ، وتوجيهي نحو العملِ السّديدِ خاصّةً الأستاذ الدكتور: حافظ أحمد يار المشرف على هذا البحث، ما زلت أحفظُه عنهم، وأُقدِّره حقَّ قدْرِه.

وما إن حَظيتُ بشرف القبولِ من الجامعة الموقّرة، حتى عَمَدْتُ إلى البحث فَقَسَّمْتُه إلى:

مقدّمة، وخاتمة ينساب بينهما قسمان رئيسيان:

أما القسم الأول:

فخصَّصْتُه كلَّه لِلتَّاريخِ لابن جماعة، والتَّعريفِ به، وبأسرته، وآثارِه تعريفاً كافياً مختصراً من تاريخ كبيرٍ سبق لي أن جَمَعْتُه عنه في كتاب من أربعمائة

صفحة سمّيْتُه: «ابن جماعة: حياته وآثاره».

وبنيْتُ هذا القسمَ علىٰ تمهيدٍ، وثمانيةِ فصول.

ألمحت في التّمهيد إلى دورِ أسرةِ آلِ جماعة في تاريخ الحركةِ الثّقافيةِ، والحضاريةِ في الإسلام رجالًا، ونساءً.

وأما الفصل الأول:

فقد تحدّثْتُ فيه عن آلِ جماعة، ونسبِهِم مدعماً هذا النسبَ بخارطةٍ توصِلُهم بجدِّهم الأعلى (جماعة) الأول من أولاد مالكِ بنِ كنانة.

وأما الفصل الثاني:

فأفردْتُه للحديثِ عن العلاّمة بدر الدين بن جماعة، ذكرْت فيه مولدَه، ثمَّ تحدّثْتُ فيه عن أسرتِهِ، فأوردْتُ تراجمَ كافيةً لوالدِه العالِم الزاهدِ الشيخِ برهانِ الدّين إبراهيم بنِ سعدِ اللّٰه بنِ جماعة، ولإخوتِهِ، إسحاقَ، وعبدِ الرَّحمن، وإسماعيلَ، وأشرتُ إلى مَنْ له ذكرٌ وشأنٌ من بينهم، وأوضحت مكانة العلاّمة بدرِ الدّين بينهم، وبيَّنْتُ أنه كان أعلاهم شأناً، وأبعدَهم ذكراً، وأرقاهم رتبةً، وأوفرَهم حرمةً، وأكثرَهم تقلّداً للعديدِ والمهمِّ من مناصبِ الدّولة.

وتحدّثت في هذا الفصلِ عن البيئة التي دَرَجَ فيها القاضي بدرُ الدين ابنُ جماعة فذكرت نبذةً عن حماة موطنِ ولادَتِه، ومنشأِ طُفولتِه، ووضَّحْتُ منزلةَ حماة العلميةِ في عصرِه، ثم تحدّثت عن بيئتِه الصغيرة، وهي أُسرتُه، وبيَّنْتُ منزلَتَها العلميّة، وتَحَلِّيها بآداب الإسلام، والزهدِ، والورعِ، وأثر هذه البيئة في نشأةِ القاضي بدرِ الدّين.

ثمّ ذكرتُ شيئاً عن بيئتِه المدرسيّة في حماة، وبيئتِه المدرسيّة الكبيرة وتنقلِه، لطلب العلم في مدارسِ دمشقَ، والقاهرةِ وغيرِهما، وعن بيئتِه العامّة

وهي الوطنُ الإسلامي كلُّه، وأشرْتُ إلى أثَرِ كلٍّ من هذه البيئاتِ عليه وعلى ما تحلّى به بعد ذلك من صفات.

أمّا الفصل الثالث:

فقد خصّصْتُه لدراستِه، وبدايتِه المبكّرة فيها، وحدّة ذَكائه، وتنوّعِ هذه الدراسة.

فأوضحْتُ أنّ دراستَه كانتْ في وقتٍ مبكرٍ من صِباه، وأثْبتّ بدلائلِ المصادرِ الموثوقِ بها إجازةَ العلماءِ له، وهو في سنّ السّابعة من عمره مرة، ثم وهو في الحادية عشرة مرة أخرى.

كما أثبتُّ من واقع هذه المصادر حدّة ذكائه، واعتراضَه على أُستاذِه العلاّمة محمدِ بنِ مالكٍ صاحبِ التصانيفِ الفائقةِ في نَحْوِ العربيّة في مسألةٍ أسكَتَتْ ابنَ مالكٍ عن الجواب.

ثُمَّ أوْرَدْتُ عن هذه النّصوص تنوعَ دراستِه التي ضَرَبَ فيها جميعاً بسهمٍ وافرٍ في شتّى العلوم، والفنون، والمعارف، حتّى صار عالمَ زمانِه ووُصِفَ بأنّه: مفسّر، فقيه، أُصولي، متكلّم، محدّث، مؤرّخ، أديب، ناظم، مشارك في غير ذلك. كلُّ هذا في زمن كان فيه النووي، والعزُّ بنُ عبدِ السّلام، وابنُ دقيقِ العيد، وابنُ تيميّة، وغيرُهم مِنَ الأكابر.

أما الفصل الرابع:

فقد أفردْتُه لتراجمِ شيوخِه، والتّعريفِ بالمدارسِ التي تولّى صدارتَها، وتراجم أشهرِ تلاميذِه.

وقد قَصَدْتُ من تراجمِ شيوخِهِ بيانَ الشّهاداتِ العلميّةِ التي حصل عليها العلاّمة بدْر الدِّين بنُ جماعة ونوعَ العلم الذي اكتسبه لأنّ بيانَ الشيوخِ في ذلك

العصر كان يعادلُ بيانَ الجامعاتِ التي يحصلُ الطالبُ على الشّهادات الدراسيّة منها في عصرنا الحاضر.

وفي هذا أوردْتُ أسماءَ شيوخِه الذين ذكرتْهم المصادر بالفعل وعددهم أربعة وعشرون شيخاً، بلغت شهرةُ الواحدِ منهم في عصره ما بلغَتْه شهرةُ أعظمِ الجامعاتِ العلميّة في زماننا هذا.

علىٰ أنّ شهرةَ الكثيرين منهم كانت في تخصّصات معيّنة، كابنِ مالك في النحو، والمجد بن دقيق العيد في فقه الشافعيّة، وابنِ البرهان، وابنِ مسلمة، والرّشيدِ العطار في الحديثِ وعلومِه، وغير ذلك مما نبّهت عليه في تراجمهم.

ولقد حرصت أشدَّ الحرص أن أُبيِّن أثرَ هؤلاءِ الشّيوخِ الأفاضلِ علىٰ القاضي بدرِ الدّين بن جماعة من النواحي العلميّة والسلوكيّة.

كما قصدْت من تراجم تلاميذِه أن أُبيِّن أثرَه العلمي على الحركة التعليميّة في عصرِه وامتداد هذا الأثر إلى ما بعْدَ جيلِه، ووضّحت قيمةَ هذا الأثرِ فيمن ترجمْتُ لهم من أسماءَ يكفي منها التعرّفُ على أثره المحمودِ بمجرّدِ ذكرِ أسمائِهم كالسُّبكي، وابنِ حيّان، والصّفدي، وقطبِ الدين السنباطي، وعمادِ الدّين البلبيسي، وشمسِ الدّين بن القماح وغيرِهم ممّن أصبحوا بعده أئمةَ زمانِهم.

كما قصدْتَ من التعريف بالمدارسِ التي تولىٰ صدارتَها مدى معرفةِ الدّولة لكفاءته العلميّة، ومدى أثرِه في حركة التّعليم في عصرِه بما تولّاه من إدارةِ هذا العددِ من المدارسِ التي بلغَتْ ثلاثَ عشْرة مدرسة كانت كلّ واحدةٍ في زمانِها جامعةٌ تُشَدّ الرِّحالُ إليها من سائر أنحاءِ العالم الإسلامي، وكان بعضُها يختصُّ بالحديث كالمدرسة الكامليّة في القاهرة، وبعضُها يختصّ بفقه الشافعيّة كالناصريّة في القاهرة، وبعضُها يدرسُ الفقهَ على المذاهِب الأربعة كالمدرسة الصالحيّة في القاهرة أيضاً.

أما الفصل الخامس:

فقد خَصَّصته لبيانِ مكانةِ ابنِ جماعة، ومنزلتِه السياسيّة، والاجتماعيّة في عصره.

وأوضحْتُ في هذا الفصلِ أنه كان قطبَ الرَّحى للدّولة في ولايةِ القضاءِ، والتّدريس والخَطابةِ، ومشيخةِ الشّيوخ، كما بيَّنْتُ مدى المكانةِ الرسميّة التي اكتسبَها ابنُ جماعة في دولة المماليك، كما لم يكتسبها عالمٌ قطّ بحيث كان يخرجُ له الجيشُ بكمالِه وقادتِه ليودّعوه إذا ذهب، ويستقبلوه إذا عادَ سواء كانَ في القاهرةِ، أو دمشقَ، وكيف حَظِيَ القبولَ من السلطانِ، والأمراءِ، والعلماءِ، والشّعراءِ والأدباءِ، والصوفيّةِ، والعامّةِ، ودعَّمْتُ كلَّ ذلك بالنّصوص التاريخيّة التي عاصرَتْه، ودَوَّنَتْ أحوالَه، وخَتَمْتُ هذا الفصلَ برَسْمِ لوحةٍ تبيِّنُ أولادَه، وأحفادَه الذين حملوا اسمه، وعلْمَه من بعده.

أما الفصل السادس:

فقد خصّصته جميعَه لعرضِ مؤلّفاتِه، ومصنّفاتِه العلميّةِ، وهي آثارُه الباقيةُ بين أيدينا حتى الآن.

فعرضْتُ هذه المؤلفاتِ عرضاً تخصّصياً بحيث ذكرتها حَسْبَ فُنونِها في أَحَدَ عَشَرَ فنّاً، وبحسب أعدادها إلى نيِّفٍ وثلاثين مخطوطاً.

وأشرْت إلى ما طُبِع منها، وما لم يُطْبع، وما حُقِّقَ وما لم يُحَقَّقْ، كما أَشَرْتُ إلى ذكرِ المصادرِ التي ذكَرت هذه المؤلفات، وحدّدْتُ أماكنَ وجودِها في الخزائنِ والمكتباتِ، على اختلافِ أجناسِها في مختلفِ أرجاءِ العالَمِ من عَربٍ وعَجَمٍ، والأرقام المحفوظة بها في هذه المكتبات.

أما الفصل السابع:

فأفردْتُه للحديثِ عن منهجِ ابن جماعة في التفسير من خلال مخطوطين له

أحدُهما في تفسير المُتشابهات: وهو: كشفُ المعاني عن المتشابه من المثاني[١].

وثانيهما: في تفسير المبهمات: وهو: غُرر التِّبيان فيمن لم يُسَمَّ في القرآن وبيَّنْتُ مكانةَ هذين المصنَّفين من بين المصنَّفات التي أُلِّفت في هذين اللّونين من التفسير، وركّزت بصفةٍ خاصّةٍ على منهجِه في تفسير المبهمات إذ هو المَعْنيُّ بتحقيقِه في بحثِنا هذا.

أما الفصل الثامن:

فقد جعلْتُه كخاتمةٍ للقسم التاريخي للعلاّمة بدرِ الدين بن جماعة إذ عَرَضْتُ في هذا الفصلِ ما كان عليه هذا الشّيخُ الجليلُ من صفاتٍ خَلْقِيّةٍ، وصفات خُلُقِيّةٍ وأوردْتُ ما أوردَتْهُ كتبُ التراجمِ عنه بأنه كانَ جميلَ الخَلْق والصُّورة، وأنه كان في خُلُقِهِ وطبعِه أَجْملَ ممّا كان عليه في صورتِه، وهيئتِه، وأوردْتُ عن ابن كثيرٍ يومَ وفاتِه الذي كان يوماً حافلاً. رحمه اللّهُ رحمةً واسعة.

وكـان نصيبُ القسمِ التّـاريخي من المصـادرِ، والمـراجـع، وكتبِ الفهارسِ، ومجلاتِ الحَوْليّات ما أَربى على الخمسين عدداً من عيون المصادرِ العربيّةِ، ولم يكن للمصادر الأجنبيّة فيها نصيبٌ يُذكَرُ لأن أحداً منها لم تمتدَّ معرفتُه بشخصيّة العلاّمة ابنِ جماعة فقَصُرَ باعُها عنه إلا ما اهتمّ منها بذكرِ كتبِ التّراثِ ككتاب «كارل بروكلمان».

وأما القسم الثاني:

فقد جعلْتُه كلَّه لتحقيقِ مخطوطِه النـادرِ في مُبهماتِ القُـرآنِ الكريم المسمّى:

(غُررُ التِّبيان فيمَنْ لم يُسَمَّ في القرآن)

وقد اسْتغرقَ هذا الجزءُ التحقيقي جُلَّ صفحاتِ البَحْثِ إذْ زادَتْ عددُ

(١) قام المؤلف بتحقيقه وطبع الآن.

صفحاتِه عن أربعمائةِ صفحةٍ، ولو أطلقتَ العَنانَ للبحثِ، والتّنقيبِ، وتفنيدِ الأقوالِ، وبيانِ الضّعيفِ من القوي، والقوي من الأقوى لخَرَجَ التحقيقُ وحْدَهُ عن الألفِ صفحةٍ أو تزيد. ولكني حدّدت منهجَ التّحقيق في الخطوات الآتية :ـ

١ ـ مقابلة نُسْخَتَيِ الكتاب، واعتماد الأصل، وإثبات ألفاظِها، وبيان ما نَقُصَ عنها، أو زاد عليها في النسخة المقابلة.

٢ ـ تحرير لفظٍ، أو تحقيق عبارةٍ، وبيان مدلولها من النّواحي اللغويّة أو الفنيّة إن وُجِدَتْ.

٣ ـ إخراجُ المخطوطِ بالصورة الفنيّة التي اعتادَها قارىءُ العصرِ الحديث.

٤ ـ إفراد اللّفظِ القُرآني المُبْهَمِ، وتحديد موضعِه بِذكرِ رَقَمِ الآيةِ التي هو فيها من السّورة المرادِ تفسيرُها، ثم بيان رقمِها العامِّ في ترتيب التّسلسل الإجمالي لعدد مبهمات القرآن الكريم كله.

٥ ـ رَدُّ كلِّ قولٍ إلى قائلِه مع ذكر العبارة التي قِيلَتْ فيه كلّما أمكن ذلك وقد أردْتُ في بداية التّحقيق أنْ أردَّ كلَّ مُبْهَمٍ لقائلٍ من الصّحابة، أو التّابعين حتى وإن لم يُشَرْ له في صُلْبِ الكتاب الناقل، لأدلِّلَ على أنَّ تفسيرَ المبْهَمات لا مَجال فيها للرأي، وإنما مرجعُها كلُّها إلى النّقلِ المأْثور، ولكني وجدْتُ ذلك ـ كما سبق أنْ أشَرْتُ ـ إطالةً للأمَدِ وزيادَةً للصفحاتِ قد تُخْرِجُنا عن أنْ تكونَ هذه الرسالةُ رسالةً جامعيّةً محدودةَ الزّمنِ، محدَّدةَ الصفحات.

واكتفيت من تحقيق ذلك إلى ردِّ ما أُشير بأنَّ له قائلاً بصيغة التمريض فأشير إلى قائلِه، وإلى عبارتِه كلّما أمكن ذلك.

ولقد حَرِصْتُ كلَّ الحرصِ على أن تكون مصادرُ هـذا القسمِ هي المصادرَ المتخصِّصةَ في إيراد القول المأْثور عن ثقاتِ الأمّة من صحابةٍ، وتابعين، أو من نقل عنهم من الثّقات، وإن تنوّعَتْ ألوان الكتب الناقلة في ذلك ككتب السّيرةِ مثلِ : السّيرة النبوية لابنِ هشام، والسّيرة النبويّةِ لابنِ كثيرٍ،

وككتبِ التاريخ : كالبدايةِ والنهايةِ لابنِ كثير، وتـاريخِ الـرُّسلِ والملوكِ للطّبري، وسواء ما كُتِبَ منها في المعارفِ العامّةِ كالمحبر لابنِ حبيب، أو المعارف لابنِ قتيبة، وما كُتِبَ منها في التّواريخ الخاصّة كتاريخِ دمشقَ لابنِ عساكر، وسواء ما كان فيها في كتبِ الحديثِ كالبخاري، ومسلمٍ، والسننِ، والمسانيدِ، أو ما كان منها في كتب التفسير.

على أنّي عَمدْتُ إلى انتقاءِ مصادرِ التّفسيرِ ممّن اهتمَّ منها بالتفسيرِ المأثورِ أو غلب عليه الاهتمامُ بالتّفسير المأْثور، كتفسيرِ الطبري، وابن كثير، والبَغَوي، وابن الجَوْزيّ، والسُّيوطي، وكالزّمخشري، والرازي، وأبي السّعود، والجّلالين، والخازن، والنّسفي.

على أنّي لم أكتفِ بمقابلة نُسْخَتَيِ الكتابِ فحسب، بل قابلْتُ الأَصْلَ بكلِّ الكتب التي تخصَّصَتْ في مُبهماتِ القرآنِ سواء منها ما كُتِب قبل ابنِ جماعة كالتعريفِ والإعلام للسّهيلي، أو التّكميل والإتمام لابنِ عساكر، أو ما كُتِبَ بعد ابن جماعة ككتابِ مُفحمات الأقران للسّيوطي، ومخطوطِ صلة الجمعِ وعائد التذييل للبلنسي، بل، لا أُغالي إذا قُلْتُ بأن هذه الكتبَ كانتْ بطبيعةِ البحثِ من أهمِّ المصادرِ المتخصّصة.

وقد زادَتْ مصادرُ ومراجعُ هذا القسمِ أيضاً عن خمسين مَصْدراً من أهمِّ المصادر العلميّة في تاريخِ تراثنا الإسلامي. فَبَلَغَ مجملُ مصادرِ البحثِ إلى عشرة مصادر فوق المائةِ أو تزيد قليلاً.

كما عُنِيْتُ قبل التحقيقِ بالتّقديم له بتمهيد، ومقدمتين :

أمّا التمهيد :

فلم يَزِدْ على عشرين سَطْراً ونيفٍ قصدْتُ منهـا الرَّبْطَ بين القسمِ التاريخي، والقسم التحقيقي، وذلك بعرض موجزٍ للغاية، للقسمِ التاريخي، وبتوطئةٍ أوجز للدّخول إلى القسم التحقيقي، الذي قدّمْتُ لـه بالمقـدّمتين المذكورتين :

أما المقدمة الأُولى: فبَنَيْتُها على ثلاثِ مسائلَ:

١ ـ المسألة الأولى: وتحدثْتُ فيها عن الأصل في نَشْأةِ «علم مُبْهَمات القرآنِ الكريم»، وذكرْتُ مدى اهتمامِ الصّحابةِ، والتابعين بهذا اللّونِ من ألوانِ التّفسير.

٢ ـ المسألة الثانية: أوردْتُ فيها أسبابَ الإبهامِ في القرآن الكريمِ، وصورَ هذا الإبهامِ وما يجوزُ البحثُ عنه من هذه الصّور، وما لا يجوز، مدعماً ذلك بنصوص أهلِ العلمِ في هذا الفنّ.

٣ ـ المسألة الثالثة: مدىٰ استكمال علمِ المُبْهَماتِ لشروطِ الاستقلالِ عن علمِ التّفسيرِ العامِ.

وقد حَرَصْتُ كلَّ الحِرصِ علىٰ أن أُطبّق المبادىء والأُصول العشرةَ في قيامِ العلمِ بالمادةِ المُبْهَمَةِ، وخَلَصْتُ من ذلك إلى مطابقةِ هذه الأُصولِ لعلمِ مُبْهَمَات القرآن، فوضعْتُ له حدّاً، وموضوعاً، وواضعاً، واستمداداً، وسائر ما ذكرتُه في موضعه مما يَصِحُّ أن نقول عنه بحق (علمُ المبهماتِ وتفسيرُه).

وأمّا المقدمة الثانية: فبَنَيْتُها على مسألتين:

١ ـ المسألة الأُولى: وخصّصتها لتسمية النُّسخِ الخَطِيّة لكتابِ (غُرَرِ التِّبيان فيمن لم يُسَمَّ في القرآن) المعني بتحقيقه.

كما أورَدْتُ وصفاً تفصيليّاً لهذه النسخ، وتوثيقاتها التاريخيّة، وأماكنَ خزائِنِها المحفوظ بها أُصولُها.

كما حَرَصْتُ على أنْ أُترجمَ لرجالِ التوثيقاتِ الموجود سماعاتهم على الأصل ما وسعني ذلك، وما لم أعثر له علىٰ ترجمة أشَرْتُ إلى عدم العثورِ علىٰ ذلك أملاً أنْ يَمُدَّني بها مَن كان علىٰ علمٍ بمكانِها، أو مكانِ مصدرِها.

٢ ـ المسألة الثانية: خطواتُ التحقيقِ وعملي فيه.

وقدْ أوضحْتُ هذه المسألةَ توضيحاً تامّاً شاملاً، إذْ هي أصلٌ من أُصولِ التّحقيقِ العلمي في هذا البحث، وبيّنت ذلك بياناً لا لَبْسَ فيه، وخَتَمْتُه: بِكَشْفٍ يُبيِّنُ الرموزَ الاصطلاحيّةَ التي اسْتَعْمَلْتُها في التّحقيق، ثمّ أوليْتُ اهتمامي بعد ذلك إلى التّحقيق نفسه، فبذلْتُ له جِدِّي واجتهادي باذلاً من ذلك أقصى الغايةِ، إذْ هو عملٌ مَنُوطٌ بكتابِ الله عزَّ وجلَّ، ومَنْ كان هذا همَّه لم يَغْفُلْ عنه.

وأما الخاتمة:

فقد خَرَجْتُ فيها بخُلاصةٍ عامّة عن البحْثِ لَخَّصْتُ فيها قِسْمَي الرِّسالة تلخيصاً سريعاً مبيّناً ما قصدت إبرازَه في كلّ فصلٍ مركّزاً علىٰ النقاطِ التالية:

١ ـ اكتشاف شخصيّة فذّةٍ من شخصيّات الأُمّةِ كان لها دورٌ تاريخيٌّ، وحضاريّ هامٌّ، أوْشَكَتِ الأمّة كلُّها أنْ تُسْدِلَ عليه سِتارَ النسيان.

٢ ـ اكتشاف أُسرةٍ كاملةٍ يبلغ عددُ أفرادِها خمسةً وأربعين عالماً كلٌّ منهم ـ بغير استثناء ـ يحمل اسم (ابن جماعة) كان لهم أكبرُ الأثرِ في تاريخِ التربيةِ والتّعليم ابتداءً من القرنِ الخامسِ الهجري إلى القرنِ الثاني عشر الهجري، أوْشَكْنا أنْ نُهمِلَهُم بِأسْمائِهِمْ، ومؤلّفاتِهِم، وآثارِهم الخالدة.

٣ ـ الردّ على مَن يُمكنُ أنْ يَطْرح سُؤالاً عن أسبابِ عَدَمِ شُهْرةِ ابنِ جماعة أو شهرةِ بني جماعة على العموم.

٤ ـ اكتشاف علمٍ جديدٍ بتجديد شخصيّته، وتخصيصِهِ بتعريفٍ جامعٍ لأُصوله.

هذا وإني لأشعرُ بمزيد الرّضا رغْم ما كابَدْتُه خلال سنواتٍ أربعٍ، باحثاً عن المصادر والمراجعِ، بين المُدنِ التي تردّدْتُ عليها في كراتشي، وإسلام

آباد، ولاهور، وأبو ظبي، ودبي، والشارقة، ومنقِّباً عن كتب هذا العلاّمة الجليلِ ومخطوطاتِه في كلِّ مكتباتِ العالم في القاهرة، والإسكندريّة، وأسبانيا، وألمانيا، وتُركيا، والهندِ، والمدينةِ المنوّرةِ علىٰ ساكنها أفضلُ الصّلاة والسّلام.

وما سمعْت له بمخطوطٍ في مكانٍ حتى سارعْتُ بالكتابةِ إليه، وما بَخِلْتُ في سبيلِ الحصولِ عليه بجُهْدٍ ولا مالٍ.

وما إن تَجَمَّعَتْ مادةُ البحثِ حتّى كان عناءُ التبويبِ والتّسجيل، أشدَّ من عَناء البحْثِ والجمع. وغايتي من ذلك كلِّه أنْ أُبرز هذه الشخصيّةَ العظيمةَ، الوقورةَ في الصّورة التي تَليقُ بما كانت عليه فعلاً. وأن أُزيل عنه الجهالةَ التي رانَتْ على عقولِ أبناءِ هذه الأُمّة بصدَدِه، طَوالَ قرونٍ سبعةٍ مَضَتْ من تاريخها.

وإني لأَشكرُ خالصَ الشّكرِ كلَّ أولئك الأَفاضلِ الذين وقَفُوا حولي، يشدُّون من أزري، ويشيرون لي إلى أماكنِ المصادرِ، والمراجعِ، والمخطوطاتِ، ويعكُفون على آلات الكتابة والسَّحْبِ، مؤمّلاً من اللّهِ العليِّ القديرِ لهم مثوبةً أعزّ وأبقىٰ من عَرَضِ الحياةِ الزّائل.

وبتعريفي بهذا العلاّمةِ الجليل، وإظهاري لشخصيّته، وآثارِه المحمودةِ علىٰ علومِ الإسلام ورجالِه، في الفترة التي قدّره اللّهُ لها من حياة هذه الأُمّة أرجو أنْ أكونَ بذلك كلِّه قد أدّيْتُ بعضَ ما يجب عليّ نحو ديني وأُمتي، رافعاً أكُفَّ الضّراعةِ إلى المولىٰ القدير، جلَّ وعلا، أن يَجْعل عملي خالصاً لوجهه الكريم، وما توفيقي إلا بالله، عليْه توكّلت وإليه أُنيب.

القسم الأول

القســم التاريخي

ابن جماعة:

حياته، واثاره العلمية، ومنهجه في التفسير